الطريق إلى المعرفة

للأستاذ عبد الحفيظ فرغلى القرنى

الأستاذ بدار المعلمات بالزمالك

قلنا فى مقال سابق : إن أسمى الغايات فى هذه الحياة هى معرفة الله سبحانه وتعالى ، والطريق إليها شاق عسير ، لا يقطعه إلا كل ذى همة عالية ، وعزم متين ، ولذلك تقطعت دونها قلوب ، وضلت فى طريقها عقول ، وتاه دون البلوغ إليها رجال .

وأول ما يعترض السالك فى طريقه إلى الله نوازع نفسه التى تزين له الجاه والسلطان ، وترغبه فى مظاهر الدنيا وزخارفها ، وتحاول أن تصده عن غايته بما تسول له من رغبة فى المعاش ، وحاجتها إليه ، وصلتها بمن يجاورها من أهل وولد ، زاعمة له أن واجبه كفرد فى المجتمع يقتضيه أن يدبر لنفسه ولمن جاوره معيشتهم ، ويشارك فى حاجات الناس بما يستطيعه من جهد ومثابرة ، لأن هذه سنة الحياة وشريعتها ، ومقتضيات الطبيعة تحتم عليه أن يكون إنساناً متجاوبا مع غيره ، متعاوناً مع مجتمعه ، لا يكون فى منأى ومعزل يعزله عن المضى فى طلب الرزق والمعاش ، وإلا عد خارجاً على قوانين الشرع الذى ينادى « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » . « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وأبتغوا من فضل الله» «إن أطيب ما أكل العبد من كسب يده».

والنفس بطبيعة الحال لا تريد أن تلقنه درساً فى التعاون أو فى واجبات الإنسان كفرد فى المجتمع ، وكذلك لا تريد أن توقفه على حدود الشرع وحقائق الدين ، ولكنها فى الواقع تريد أن تصده عن غايته ، وتعوقه عن قصده ، وتثنيه عن عزمه ، ولذلك لا يتنبه لهذه الدسيسة إلا فتى قوى عزمه ، وأوتى من فصل الخطاب ما يمكنه إقناعها بالحجة والمنطق ويرد عليها ، بأن هذه الغاية التى يريد أن يصل إليها ليس طريقها المقعود عن طلب الرزق أو التقصير فى حق المجتمع ، أو التوانى فى تحصيل المعاش وأداء ما يجب عليه من أعمال وواجبات ، ولكن هذه الغاية نفسها هى التى تدفع

الإنسان إلى الاخلاص فى عمله والتفانى فى أداء واجبه ، وتحرى الحلال الطيب من الرزق ، وبالتزام الصدق فى حياته قولا وعملا ، مع أداء ما يجب عليه من فرائض أمر بها الشرع فى أوقاتها المحدودة ، والتزود ببعض السنن والنوافل التى تضفى عليه جمالا وكمالا ، وهذا هو الطريق الصحيح الموصل إلى الله سبحانه وتعالى « ما تقرب إلى عبدى بشىء أحب مما افترضته عليه من الفرائض ، وما زال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ورجله التى يسعى عليها ، ويده التى يبطش بها » .

ومع أن هذه الأسباب هى التى تؤدى إلى احتفاظ الانسان بحقه فى الحياة ، وتحصيل معاشه على الوجه الأكمل ، فهى أيضاً التى تصله بالله . بشرط أن يكون قلبه فارغا من التعلق بزخارف الدنيا الزائلة ، وشهواتها الباطلة ، وألا يكون منغمساً فى طلبها إنغماساً يلهيه عن مطلبه الأسمى ، ومقصوده الأعلى ، وهذا هو الذى يفهم من معنى الحديث الشريف « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » ويفهم أيضاً من الدعاء المأثور « اللهم اجعل الدنيا فى أيدينا ولا تجعلها فى قلوبنا » وهذا أيضاً هو الذى يبين المعنى الدقيق الفارق بين التوكل والتواكل ، فالتوكل لجوء إلى الله وافتقار إليه ، واعتزاز به واستعانة بقدرته على كل ما نقوم به عن عمل دينى ودنيوى ، مع مراعاة الأخذ بالأسباب المشروعة التى حددها الشرع والدين ، أما التوكل فهو ترك الأسباب جملة ، وعدم الاعتداد بها إطلاقا ، والقعود عن العمل ، تذرعا لم — عند أصحابه — بأن الله هو الرازق ذو القوة المتين . مع العلم بأن هذا حجة عليهم لا لهم ، وإدعاء بأن هذا هو التوكل الذى دعا إليه الله ورسوله ، والواقع غير هذا مما يسميه هؤلاء توكلا إنما هو كسل واحتيال على الشرع وتعد على حدود الله ورسوله .

فإذا ما تمكن السالك من الانتصار على نفسه فى دعواها ، وثابر على النهوض بشأنه ، وسار لا يلتفت إلى وساوسها وانتقل من سلطان نفسه إلى سلطان روحه ، تفتحت له ينابيع الحكمة ، وفاضت له عيون الرحمة ، واتسعت له صدور المحبة ، وشاهد من دلائل قرب الله جل وعلا ما يبشره بجنة عرضها السموات والأرض ، وهو فى

سبيل ذلك أيضاً لا يسلم من مجاهدات ومكابدات ، لأنه يجد فى طريقه من الشواغل والعوائق ما لو ارتكن إليه لحجب عن الحق ، وقد شبه بعض سادتنا الصوفية السائر إلى الله برجل أرسل الملك فى طلبه وأقام له فى كل مدينة يصل إليها قصراً منيعاً جميلا ، به وسائل الترفيه والسعادة ، وحشد له من ضروب التكريم والتبجيل والترحيب ما يفوق الوصف . فإن هو انشغل بهذه الظواهر لم يصل إلى الملك إطلاقا . كذلك السالك فى طريقه إلى الله ، يجد بعد انتصاره على نفسه ألوانا من الفيوضات والكرامات والكشف وغير ذلك مما لو انشغل به لعاقه ذلك عن الوصول إلى حضرة الحق جل وعلا ، وقد أفاض سادتنا الصوفية العارفون فى بيان ذلك . اقرأ قول ابن عطاء الله السكندرى : ما أرادت همة سالك أن تقف عند ما كشف لها إلا ونادته هواتف الحقيقة : الذى تطلب أمامك ، ولا تبرجت ظواهر المكونات إلا ونادته حقائقها : إنما نحن فتنة فلا تكفر .

ومن هنا ندرك أن هذا الطريق كله مشقات لا يتمكن منها إلا من صحت عزيمته ، وقويت شكيمته ومن هنا أيضا ندرك فضل الصوفية على غيرهم لأنهم انفردوا بذلك العلم ، وساروا فى ذلك الطريق ميممين شطر أكرم وجهة فى الوجود لم تخر لهم عزيمة ولم تضعف لهم همة ، وتعرفوا على خصائصها وخبروا صعوباتها ، وتمكنوا من اجتيازها . ولذلك كان لابد لكل سالك من مرشد يأخذ بيده ويقيه عثرات الطريق يقول ابن عطاء الله السكندرى فى مفتاح الفلاح « وينبغى لمن عزم على الاسترشاد وسلوك طريق الرشاد أن يبحث عن شيخ من أهل التحقيق ، وسالك للطريق ، تارك لهواه راسخ القدم فى خدمة مولاه ، فإذا وجده فليمتثل ما أمر ، ولينته عما نهى عنه وزجر كما يقول أبو على الدقاق أيضا « الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فانها تورق لكن لا تثمر ، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نفسا فنفسا فهو عابد هواه لا يجد نفاذا .

وفقنا الله وهو ولى التوفيق ؟